

الزجاجي

حياته وآثاره

ومذهبه النحوي من خلال كتابه «الإيضاح»

- 5 -

عرض مذهبي

رأبنا في حديثنا عن مذهب الزجاجي النحوي أنه كان ابن عصره وببشته في بسط المذهبين النحويين والأخذ من كل منها بطرف كما رأبنا أنه كان أكثر ميلاً إلى مذهب البصريين ، وان استعراضنا للمسائل الخلافية التي تعرض لها كتاب الإيضاح ليؤيد فكرتنا السابقة عن مذهب الزجاجي في النحو .

أ) الزجاجي بين البصريين والكوفيين

لقد ذاع أمر الخصومة بين البصريين والكوفيين من النحويين ، حتى أصبح الخلاف بينهم موضوعاً للدرس والتأليف ، فدرست عوامله ونوازهه ، وبجست مسائله ، وقام العلماء يحكمون بين الطرفين معتمدين سبيل العدل و«الانصاف» . إلا ان الحق الذي لا صربة فيه أن البصريين كانوا أوفر حظاً من خصومهم ، فكثرت مؤلفاتهم وشاعت ، وعاشت آراؤهم سيده متبعة إلى يوم الناس هذا ، على حين لا نجد للكوفيين مؤلفاً يجمع شتات آرائهم وانما هي أقوال مشورة تقع عليها في تضاعيف كتب البصريين أو هي استندراكات يسيرة تذكر بعقب الأصول ، أما كتبهم التي وضعوها وانضحت فيها أصول مذهبهم ، فلم تكتب

- ٢٣٤ -

لها الحياة طوال الأعصر السالفة ، وما عاش منها لم يكتب له أن يرى نور الطباعة والنشر إلا في هذا العصر المتأخر^(١) .

وانه ليحذر بنا الآن - وقد اندثر عهد اخلاف وماتت دوافعه - أن نعود الى النحو جميعه كوفيه وبصريه فنشره وتدارسه ، فقد يكون في نحو الكوفيين المغمور ما هو أكثر ملاءمة للفتنا وتطورها من نحو البصريين ، وحسبنا أن نعود الى كتاب الانصاف في مسائل اخلاف لابن الأنباري ونطالع فيه آراء البصريين والكوفيين لتعلم أن الحق لم يكن دوماً الى جانب البصريين وان نظرة الكوفيين في بعض المسائل كانت أكثر سداداً وتفهماً لواقع اللفه من نظرة البصريين .

ولا شك أن خير المصادر لأقوال الكوفيين تلك الكتب التي وضعها المنصفون من العلماء فأعطوا كل ذي حق حقه ، وذكروا لكل طرف نصيبه من الاحسان والامانة ، وأبو القاسم الزجاجي واحد من هؤلاء الذين يؤلفون « ذاكرين ما بين البصريين والكوفيين من اخلاف ، ومحتجين للفريقين بأجود ما احتجوا به . . . غير متحاملين على أحد الفريقين^(٢) » ثم انه تلقى علم كل من الطرفين من أصحابه مباشرة ، فأخذ عن ابن السراج تليذ المبرد ، كما أخذ عن أبي موسى الخامض تليذ ثعلب ، وعن الزجاج تليذهما جميعاً .

(١) ظهر في هذا العصر من كتب الكوفيين كتاب « مجالس ثعلب » ويطبع الآن كتاب « معاني القرآن » للفراء وفيه الكثير من آراء الكوفيين النحوية ، إذ هو تخريج لأصاليب القرآن المزيز من جهة النحر ؛ ومن الكتب التي حاولت أن تضم قواعد الكوفيين في النحو كتاب « الموفى في النحو الكوفي » لسيد القادر الكنتراوي المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ ، وقد طبع في دمشق ، (وهذا الكتاب من مطبوعات المجمع العلمي العربي بتطبيق الأستاذ محمد هبة البيطار) .

(٢) مقدمة كتاب الأيضاح .

ونحن إن كنا نظرننا الى كتاب الإيضاح فيما سبق نظرة عامة استعرضنا فيها مواده ونظرة أخرى تاريخية ، فقد يفيدنا الآن أن ننظر اليه من الوجهة المذهبية - إذا صح هذا التعبير - لنرى ما سجله من آثار الخلاف بين البصريين والكوفيين .

لقد كان للخلاف بين البصريين والكوفيين نصيب في كتاب الإيضاح ، فكان الزجاجي اذا بحث مسألة من مسائل النحو دار حولها شيء من الخلاف بين النحويين ، يذكر هذا الخلاف ويأتي على الآراء المتباينة شرحاً وتفصيلاً ، ورداً أو قبولاً ، مع نسبة كل رأي الى صاحبه .

والمسائل التي تناوها الزجاجي بالبحث ، وكانت هي أو علماً مشار الخلاف بين البصريين والكوفيين ، سبع مسائل هي :

- ١ - الفعل والمصدر أيهما اشق من صاحبه ؟
- ٢ - الإعراب أحركة هو أم حرف ؟
- ٣ - المستحق للإعراب والمستحق للبناء من الأسماء والأفعال والحروف .
- ٤ - علة دخول التنوين في الكلام .
- ٥ - علة ثقل الفعل وخفة الاسم .
- ٦ - علة امتناع الأسماء من الجزم .
- ٧ - اعراب التثنية والجمع .

كان الزجاجي في بعضها مبالاً الى رأي البصريين - كما هو في المسألة الأولى منها إذ يقول « نبدأ بذكر احتجاج البصريين لمذهبهم لأنه عندنا الصحيح » وفي المسألة السابعة أيضاً إذ يقول « نبدأ بذكر احتجاج مذهب مذهب ، وماله وما عليه ، ونختم الكتاب بمذهب صيبويه ، وما احتج به له وعليه ، لأنه عندنا هو الصواب دون غيره . . » ، وكان في بعضها راوية ينقل عن الطرفين ،

ويسجل ما لها وما عليها دون أن يشير الى رأيه في الموضوع كما هو شأنه في المسألتين الرابعة والخامسة .

وإذا بحثنا عن هذه المسائل في كتاب الإنصاف لابن الأنباري وجدنا فيه سألتيين منها فقط ، هما المسألة الأولى - وهي المسألة الثامنة والمشرون من مسائل الإنصاف - والمسألة الأخيرة - وهي الثالثة من مسائل الإنصاف - وأما سائر هذه المسائل فقد تفرد الزجاجي بذكرها على تقدم عهده عن ابن الأنباري .

ويتبين لنا بالموازنة بين ما ذكره كل من الزجاجي وابن الأنباري من هذه المسائل أن الزجاجي كان أقل عنابة بالحجج النظرية والطلل الفلسفية من ابن الأنباري ، وان أكبر عنابته كانت موجهة الى ما يجري من هذه الحجج والطلل على أوضاع النحو واللفة ، ومن هنا كان الاختلاف في عرض المسألة الواحدة عند كل منهما وفي الحجج التي يوردها للطرفين .

كما يتبين لنا امتياز الزجاجي بنسبته الرأي الى صاحبه ، أو ذكر من يقول به من العلماء ، فيينا يقدم ابن الأنباري لكل دليل يورده بقوله « ومنهم من تمسك بأن الدليل ٠٠٠ » دون ذكر أحد من أصحاب هذا الدليل نجد الزجاجي يعزو القول الى قائله فيقول قال الفراء أو قال الكسائي ، أو بذكر علماً أخذ بهذا الرأي فيقول مثلاً « دليل آخر للبصريين وكان شيخنا أبو اسحاق الزجاج رحمه الله يستدل به . »

وإذا أحصينا الذين روى الزجاجي عنهم في كتاب الإيضاح من رجال المذهبين وجدناهم متساوين عدداً ، ومتسلسلين زماناً من عصر الخليل الى عصر الزجاجي

نفسه وهذا جدول بأسمائهم مرتب حسب مذهبهم النحوي وصني وفاتهم

اخليل بن أحمد (١٢٥ هـ)

الكوفيون	البصريون
١٨٩ هـ الكسائي	١٨٠ هـ صيبويه
٢٠٧ هـ الفراء	٢٠٦ هـ قطرب
٢٠٩ هـ هشام بن معاوية	٢١٠ هـ سعيد بن مسعدة (الأخفش)
٢٩١ هـ ثعلب	٢٤٩ هـ المازني
٣٠٥ هـ الطامض	٢٨٥ هـ المبرد
٣٢٢ هـ ابن الأنباري	٣١٦ هـ ابن السراج

وقد روى عن غير هؤلاء ممن خلط بين المذهبين وأخذ عن الطرفين وعدّ بحدادياً كما سنرى وجملة القول إن بحث الزجاجي لبعض مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين بعطينا نماذج من عال كل منهم ، وبطلنا على منهج تفكيرهم النحوي بل بلفتنا الى أن الكثير مما دار الخلاف حوله لا يمدو كونه أصراً نظرياً جدلياً ، غير ذي قيمة عملية ، وإن الكثير من هذا الخلاف تناول العلة في ذاتها أكثر مما تناول المعلول ، إذ كثيراً ما اتفق النحويون على شيء ، ثم فرق بينهم الخلاف في تعليقه .

ب - مذهب البقدايين والزجاجي

من تمام النظرة التاريخية الى كتاب الايضاح أن نساير حياة النحو وتطور مذاهبه فيه ، وأن تقف فيه حيث وقف صاحبه به ، والزجاجي لم يقف عند الرواية عن البصريين والكوفيين ، وذكر ما اختلفوا فيه ، بل تابع السير فروى عنى جاء على أعقابهم وصرح بين آرائهم جميعاً .

وان بوادر الخلاف في الرأي إذا كانت قد أطلت بين الخليل (٥١٧٥)
والرؤامي وتركزت بين سيويه (١٨٠) والكسائي (١٨٩) وبلغت أشدها
بين المبرد (٢٧٥) وثلث (٢٩١) ، فان أوارها أخذ يخبو فيما بعد بين تلاميذ
المبرد وثلث ، أولئك التلاميذ الذين فتح لهم بغداد أبوابها وازدحت بهم
مساجدها وامتلات بهم قصور الخلفاء وغيرهم فيها ، فكانت يبتهم أرحب من
البصرة والكوفة وأوسع ، وكانت أبعد عن حمى النصب ، وحماسة الجدل ،
وعزلة التمسك بالرأي ، وكانت بغداد ملقى علماء البصريين ، فكان فيها بسط
للعلم واختبار الآراء وأخذ من كل طرف بقول ، على تفاوت في مدى هذا
الأخذ ونفاذه .

وفي هذا العصر « البغدادي » عاش الزجاجي ، وعن هؤلاء العلماء الذين
مزجوا نحو البصرة بنحو الكوفة تلقى علومه ، أخذ عن ابن كيسان (٢٩٩)
والزجاج (٣١١) والأخفش الصغير (٣١٥) ، وكان كل من هؤلاء الثلاثة
تلميذاً للمبرد وثلث . كما أخذ عن علماء بغداديين آخرين كالطبري وابن الخطيب
وابن شقير ، وكان عدد الذين روى عنهم من البغداديين لا يقل عن من روى
عنهم من بصريين أو كوفيين . وحدث الزجاجي عن هؤلاء يطلعنا كيف حصل
التمازج ، وكيف نشأت هذه الطبقة ذات العقلية المعتدلة ، والآراء القائمة
على الانتخاب والاختيار .

فبعض هؤلاء كان كوفياً ، بل من أعلام الكوفيين ، ثم أخذ عن البصريين
حتى أحاط علماً بالمذهبين ، بقول الزجاجي « ومن علماء الكوفيين الذين أخذت
عنهم أبو الحسن بن كيسان ، وأبو بكر بن شقير ، وأبو بكر بن الخطيب ،
لأن هؤلاء قدوة أعلام في علم الكوفيين ، وكان أول اعتمادهم عليه ، ثم درسوا
علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين الملمين » وقصة تحول الزجاج عن ثلث
إلى المبرد ليست بعيدة هنا .

وترينا رواية الزجاجي لآراء البغداديين كيف قامت طريقتهم على انتخاب الرأي الموافق ، دون النظر الى نزعة صاحبه ، وأنهم كانوا أحراراً في اختيارهم . كما تربنا أي النحويين البصري والكوفي كان أكثر نفاذاً وسيرورة بين المعتدلين من العلماء . وإذا كان نحو البصرة هو الذي غلب فيما بعد ، وكان حظه من الحياة أوفر ، فإن هذا لا يعني أن نحو الكوفة أهمل ، بل لقد كان من البغداديين من يميل الى رأي الكوفيين في كثير من المسائل ويقول به ، ففي بحث المستحق للإعراب من الأسماء والأفعال والحروف كان رأي الخليل وسبويه وجميع البصريين أن المستحق للإعراب من الكلام هو الأسماء . وأما الأفعال والحروف فتستحق البناء . وكان رأي الكوفيين أن الإعراب للأسماء والأفعال وأما البناء فللحروف فقط . وكان من أدلة الكوفيين على صحة رأيهم أن قالوا : إذا كانت الأسماء قد استحققت الإعراب لاختلاف معانيها حتى أننا أعربنا الفعل المضارع لمضارعه الأسماء ، فإن الأفعال أيضاً تختلف معانيها كما اختلفت معاني الأسماء فتكون ماضية ومستقبلية وموجبة ومنفية ومجازية بها ، وأموراً بها ، ومنهياً عنها ، وتكون للمخاطب والمتكلم والغائب ، وللذكر والأنثى فإذا كان اختلاف المعاني أوجب للأسماء الإعراب عندكم فاختلف هذه المعاني في الأفعال يوجب إعرابها لأنها مثل ذلك أو أكثر . وإلا فما الفرق ؟ يقول الزجاجي « وكان ابن شقير يمثل بمثل هذا الاعتلال ويردده كثيراً ، وكان شديد التعصب مع الكوفيين مع اعتقاده مذهب البصريين . . »

فابن شقير كان عالماً ببغدادياً قال بأكثر آراء البصريين ، ولكن هذا لم يمنعه أن يقول يرأي للكوفيين استحسنة في مسألة ما . وعلى مثل هذا المزج والاختيار قام مذهب بغداد .

أما الزجاجي نفسه ، فكان يعرض أقوال البصريين والكوفيين ويجمعهم ،

وكان الميل الى البصريين هو الغالب عليه . وموقفه من هذين الطرفين ،
وأراؤه هو آخر ما نتحدث عنه في تأريخنا لمواد كتاب الايضاح .

لقد كانت نظرة الزجاجي الى النحو نظرة تقوم على الاجلال والقداصة ،
لان النحو هو العلم الذي تعرف به لغة القرآن الكريم وتدرك به احاديث النبي .
فما زالت العربية - الى ايام أبي القاسم - شديدة الصلة بالدين ، فهي لغة
القرآن وآلة علومه ، وهو الباعث على حفظها وخدمتها .

وليس في كتاب الايضاح ما بدلنا على مفهوم « النحو » عند الزجاجي أو عند
أهل عصره سوى ما كان من أمر الإشارة الى أخذ معناه من كلمة أبي الأسود
الدؤلي حين وضع شيئاً منه ثم قال : انحوا هذا النحو . وأما حده عند الزجاجي
فهو اسم لهذا الجنس من العلم . . بل ان مدلول النحو قد يضيق عنده حتى
يصبح قاصراً على الاعراب فيقول « ويسمى النحو إعراباً . والاعراب نحواً ،
سماعاً لأن الفرض طلب علم واحد » ولعله يريد بذلك أن يبرز لنا اهتمام النحاة
بالاعراب خاصة من بين موضوعات النحو عامة . وعلى كل فإن هذا الباب
الذي تحدث فيه الزجاجي عن حدود النحو واللغة والاعراب والغريب يعطينا
فكرة عن وضع المصطلحات واستعمالها في ذلك العصر ، فهي مصطلحات
مازالت ملتصقة بالمعنى اللغوي للمصطلح ، لم تتعد عنه ، فالنحو من « انحوا »
أي اقصوا ، والاعراب من أعرب أي أبان ، ثم سميت الحركات إعراباً
لانها تبين عن المعاني وأما اللغة فهي العربية

ومثل هذه البدائية في التعريف والقرب في التعليل ما نجده عند الزجاجي
حين يتحدث عن معنى الرفع والنصب والجر أو الخفض ، فيجملها مأخوذة من
حركة الحنك عند التلظظ بها .

م (٥)

على أن الأمر الذي يجب أن نقف عنده ، ونعظم شأنه ونحن نؤرخ لعمل الزجاجي هو تأليفه في العال ، وحديثه عنها هذا الحديث النظري المجرد .

فقد دارت العلة على السن التحويين منذ القديم ، قبل الزجاجي وبمده ، ولكن لم يتحدث عنها أحد من الذين سبقوه ، نعم لقد كانوا يملكون بعض أحكامهم ويلتصون العال للظواهر اللغوية أو النحوية التي وجدوها ، ولكنهم لم يتحدثوا عن التعليل نفسه من أين استقوه ؟ وما هي أنواعه ومسالكه ؟ وعمل أبي القاسم الزجاجي هو أول خطوة في هذا السبيل إن صح أنه أول من ألف في العلة كما ذكر هو عن نفسه .

ولست أقصد هنا إلى الحديث عن تاريخ العلة في النحو العربي ، ولكني أريد أن أذكر أن خطوة الزجاجي هذه - وإن لم تكن الأولى - يمكن اعتبارها بدء التطور في تاريخ العلة ، وفاصلاً بين مرحلتين اثنتين : مرحلة التعليل بأعقاب الأحكام النحوية كما هو الأمر عند صيبويه ومرحلة الحديث عن التعليل ذاته ؛ مصادره وأنواعه ومسالكه كما هو الأمر عند ابن جني . وبعبارة أوضح يمكن اعتبار عمل الزجاجي فاصلاً بين مرحلة التعليل ومرحلة تأريخ التعليل ، كما يمكن اعتبار حديثه عن العلة أول حديث نظري مجرد وصل البناء .

* * *

مصادر ترجمة الزجاجي

- ١ - اشارة التعيين الى تراجم النحاة اللغويين لأبي المحاسن عبد الباقي الشافعي .
(مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم / ١٦١٢ تاريخ)
الورقة : ٢٦
- ٢ - الأكمال في رفع الالتياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى
والأنساب لابن ماكولا . (مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة .
رقم / ٨ مصطلح حديث) ج ٢ ورقة : ١١
- ٣ - إنباه الرواة على إنباه النحاة للقنطي ٢ : ١٦٠
- ٤ - الأنساب للسمعاني : ٢٧٢
- ٥ - بضية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : ٢٩٧
- ٦ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١ : ١١٠ والذيل ١ : ١٧٠
- ٧ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . (مخطوط في المكتبة الظاهرية
بدمشق . رقم / ٨ تاريخ) ج ٩ : ٤٣٢
- ٨ - أجمال للزجاجي . فيه مقدمة لمحققه الشيخ ابن أبي شنب .
- ٩ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات لمحمد باقر الموسوي : ٤٣٥
- ١٠ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٢ : ٣٥٧
- ١١ - طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي : ١٢٩
- ١٢ - طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شعبة (مخطوط في اخزانة التيمورية
بدار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم / ٢١٤٦ تاريخ تيمور .) ٢ : ٦٥
- ١٣ - عيون التواريخ لابن شاكر الكندي . (مخطوط في دار الكتب المصرية
بالقاهرة . رقم ١٤٩٧ تاريخ) . وفيات سنة ٣٤٠

- ١٤ - فهرسة ابن خير الاشبيلي : ٣٤٤
 ١٥ - فهرسة ابن النديم : ٨٠
 ١٦ - الكامل لابن الأثير ٨ : ١٩٤
 ١٧ - صرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي ٢ : ٣٣٢
 ١٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن قفري يردي ٣ : ٣٠٢
 ١٩ - نزهة الألبا في طبقات الأدياء لابن الأباري : ٣٧٩
 ٢٠ - وفيات الاعيان لابن خلكان } طبعة باريس ١ : ٣٨٩
 طبعة بولاق ١ : ٣٤٩

مآنه المبارك